مجموعة القصص الدينية

باشراف محمد أحمد برانق



١٩

بائع الأمراء

دار المعارف بمصر

مجموعة القصص الدينية

(١٩)

بإشراف
محمد أحمد برانق

بائع الأمراء

الطبعة الحادية عشرة

دار المعارف

١

مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعمائَةِ سَنَةٍ، كَانَ فِي مِصْرَ رَجُلٌ عظِيمٌ وعالِمٌ جَلِيلٌ، اسْمُهُ: «الشَّيْخُ عِزُّ الدِّين بنُ عَبْدِ السَّلامِ».

وَقَدْ وَهَبَ اللهُ لِهٰذَا الرَّجُلِ ذَكاءً مُمْتَازًا، وَعَقْلاً كَبِيرًا، وَنَفْساً طَيِّبَةً كَرِيمَةً، وَخُلُقاً فاضِلاً. وَعرَفَ النَّاسُ فِيهِ هٰذِهِ المَوَاهِبَ والصِّفَاتِ مُنْذُ أَنْ كَانَ صَغِيرًا، فَأَحَبُّوهُ حُبًّا شَدِيدًا كَمَا يُحِبُّونَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ نَظْرَةً كُلُّهَا إِكْبَارٌ وإِعْجَابٌ. وَكَانَ هٰذَا الرَّجُلُ العَظِيمُ يَعِيشُ أَوَّلاً فِي دِمَشْقَ عَاصِمَةِ بِلادِ الشَّامِ، وَلَبِثَ بِهَا زَمَناً طَوِيلاً؛ ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهَا إلَى مِصْرَ، وَاسْتَوْطَنَ القَاهِرَةَ. وكَانَ ذٰلِكَ بِسَبَبِ خِلافٍ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَلِكِ دِمَشْقَ. وَكَانَ يُحِبُّ العِلْمَ مُنْذُ صِغَرِهِ، فَوَاظَبَ عَلَى طَلَبِهِ، وَدَأَبَ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَفَهْمِهِ، وَقَرَأَ كَثِيرًا مِنَ الكُتُبِ الدِّينِيَّةِ وَغَيْرِهَا، وَتَتَلْمَذَ لِبَعْضِ أَفَاضِلِ العُلَمَاءِ فِي زَمَانِهِ، حَتَّى صَارَ فَقِيهاً لا مَثِيلَ لَهُ، وَعَالِماً يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ.

وَلمَّا امْتَلأَ قَلْبُهُ عِلْماً وَمعْرِفَةً ، ازْدادَ فَهْماً لِحَقِيقَةِ الْحَيَاةِ وَأَصْبَحَتْ آرَاؤُهُ حَكِيمَةً ، وَأَفكارُهُ صَائِبَةً ، وَأَقبَلَ عَلَى النَّاسِ يَنْفَعُهُمْ بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ ، وآرَائِهِ وَأَفْكارِهِ .

وَتَسَامَعَ النَّاسُ بِهِ فِي دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا ، وَانْتَشَرَ خَبَرُهُ بَيْنَهُمْ فَامْتَلَئُوا بِالشَّوْقِ إِلى رُؤْيَتِهِ ، والتَّيَمُّنِ بِطَلْعَتِهِ ، وَالانْتِفَاعِ بِبَرَكَتِهِ . فَكانُوا يَفِدُونَ عَلَيْهِ فُرَادَى وَجَمَاعَاتٍ ، لِكَيْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ عِلْمِهِ وَأَدَبِهِ ، وَيَسْتَوْضِحُوهُ مَا غَمَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ أُمُورِ دِينِهِمْ ، وَمَا انْبَهَمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَحْوَالِ عَقَائِدِهِمْ ، وَمَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ شُئُونِ حَيَاتِهِمْ .

وَقَدْ أَعْجَبَهُمْ مِنْهُ زُهْدُهُ فِي الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا الكاذِبَةِ الخَادِعَةِ ، وَآمَالِهَا البَرَّاقَةِ الخَلَّابَةِ ؛ كَمَا أَعْجَبَهُمْ مِنْهُ أَيْضًا تَمَسُّكُهُ بِالْحَقِّ وَدَعْوَتُهُ إِلَى مُرَاعَاةِ العَدْلِ وَحَثُّهُ لَهُمْ عَلَى التَّعَاوُنِ والتَّآلُفِ والمَوَدَّةِ وَاتِّبَاعِ تَعَالِيمِ الدِّينِ القَوِيمِ .

وَقَدِ اتَّجَهَتْ نَفْسُهُ الطَّيِّبَةُ إِلَى إِصْلاحِ حَالِ النَّاسِ وَخُصُوصًا أَنَّهُ رَأَى مَا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنَ الآلامِ

وَصَارَ يَتَأَلَّمُ لِآلاَمِهِمْ ، وَيَحْزَنُ لِحُزْنِهِمْ ، وَيَشْقَى لِشَقَائِهِمْ . وعاَهَدَ نَفْسَهُ أَمَامَ اللهِ ، أَنْ يَعِيشَ لَهُمْ ، وَأَنْ يَهَبَ حيَاتَهُ لِهِدَايَتِهِمْ ، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ آلاَمِهِمْ وَشَقَائِهِمْ كُلَّمَا سَاعَدَتْهُ الفُرَصُ ، وَعاَوَنَتْهُ ظُرُوفُ الأَيَّامِ . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سبَباً فِى تَعَلُّقِ النَّاسِ بِهِ ، وَالْتِفَافِهِمْ مِنْ حَوْلِهِ ، وَسَمَاعِهِمْ لِمَشُورَتِهِ ، وَتَعَصُّبِهِمْ لِرَأْيِهِ ، واسْتِجَابَتِهِمْ لِنِدَائِهِ ، وَتَنْفِيذِهِمْ لِأَوَامِرِهِ ، مَهْمَا لاَقَوْا فِى سَبِيلِهَا مِنْ مَشَقَّةٍ أَوْ أَصَابَهِمْ مِنْ أَلَمٍ .

وَتَتَابَعَتِ الأَيَّامُ وَتَوَالَتِ الأَعْوَامُ ، وَالشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » يَزْدَادُ عِنْدَ النَّاسِ مَحَبَّةً وَجَاهاً ، وَتَرْتَفِعُ مَنْزِلَتُهُ ، وتَسْمُو مَكَانَتُهُ ، وَيَتَّسِعُ نُفُوذُهُ وَسُلْطَانُهُ ، وَيَنْقَادُ النَّاسُ لِآرَائِهِ .

وَكَانَ يَجْلِسُ فى بَعْضِ المسَاجِدِ بِدِمَشْقَ ، لِيُعَلِّمَ النَّاسَ أُمُورَ دِينِهِمْ ، وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ ، وَيُهَذِّبَ أَخْلاَقَهِمْ وَيَدْعُوَهُمْ إلى المَحَبَّةِ والتَّعَاوُنِ ، وَيَنْصَحَهُمْ بِالْعَمَلِ الطَّيِّبِ ، وَالابْتِعَادِ عَنِ الشَّرِّ وَالظُّلْمِ ، وَأَنْ يُعامِلَ بَعْضُهُمْ الْبَعْضَ الآخَرَ مُعَامَلَةً حَسَنَةً ، وَأَنْ يُحِبَّ كُلٌّ مِنْهُمْ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ،

لِكَيْ يَسْعَدُوا جَمِيعاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .

وَقَدِ ازْدَادَ مُحِبُّو الشَّيْخِ « عِزِّ الدِّينِ » وَكَثُرَ أَتْبَاعُهُ وَمُرِيدُوهُ وَأَمَّا تَلَامِيذُهُ فَقَدْ أَصْبَحُوا لَا يُحْصَوْنَ عَدًّا . وَصَارَ أَفْضَلَ عَالِمٍ فِي زَمَانِهِ ، فَسَمَّاهُ أَحَدُ تَلَامِيذِهِ « سُلْطَانَ الْعُلَمَاءِ » .

وَلَمَّا رَأَى مُلُوكُ زَمَانِهِ وَأُمَرَاءُ عَصْرِهِ أَنَّ النَّاسَ أَصْبَحُوا يُحِبُّونَ الشَّيْخَ « عِزَّ الدِّينِ » وَيَتَّبِعُونَ آرَاءَهُ ، وَيَنْقَادُونَ لِمَشُورَتِهِ ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ النَّصِيحَةَ فِي كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ أَصْبَحُوا يَخَافُونَهُ عَلَى مُلْكِهِمْ ، وَيَخْشَوْنَ نُفُوذَهُ بَيْنَ رَعَايَاهُمْ وَيَعْمَلُونَ حِسَابَهُ فِي كُلِّ خَطْوَةٍ يَخْطُونَهَا ، وَفِي كُلِّ مَشْرُوعٍ يَقُومُونَ بِهِ ؛ وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ طَلَباً لِمَشُورَتِهِ ، وَرَغْبَةً فِي نَصِيحَتِهِ ، حَتَّى لَا يُثِيرَ عَلَيْهِ النَّاسَ ، وَيُهَيِّجَ ضِدَّهُ الْعَامَّةَ ، وَيُحَرِّضَ الرَّعِيَّةَ . وَكَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَجْتَهِدُ فِي أَنْ يَتَبَاعَدَ عَنِ الشَّرِّ ، وَيَتَجَنَّبَ الظُّلْمَ ، حَتَّى لَا يَغْضَبَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَدُوًّا لِلظَّالِمِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أَضْخَمَ مُلُوكِ الأَرْضِ قُوَّةً وَسُلْطَاناً .

وَلَمْ يَذْهَبْ عَنْهُمُ الْخَوْفُ مِنَ الشَّيْخِ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَاتَ .

حَتَّى لَقَدْ قَالَ مَلِكُ مِصْرَ حِينَذَاكَ ، لَمَّا عَرَفَ بِوَفَاةِ الشَّيْخِ : « مَا اُسْتَقَرَّ مُلْكِي إِلَّا الآنَ » .

وَأَقْبَلَ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ عَلَى « سُلْطَانِ الْعُلَمَاءِ » يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ مُشْكِلَاتِ دُوَلِهِمْ ، وَالأُمُورَ الشَّائِكَةَ الْمُسْتَعْصِيَةَ عَلَيْهِمْ لِيَأْخُذُوا فِيهَا رَأْيَهُ ، وَيَسْتَطْلِعُوا مَشُورَتَهُ . فَكَانَ دَائِمًا يَبْذُلُ لَهُمُ الرَّأْيَ النَّافِعَ ، وَالنَّصِيحَةَ الْمُخْلِصَةَ ، وَالْمَشُورَةَ الأَمِينَةَ ؛ وَهُوَ لَا يَطْلُبُ لِنَفْسِهِ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ غَنِيمَةً يَغْتَنِمُهَا ، أَوْ أَجْرًا يَنْتَفِعُ بِهِ ، وَلَا يَطْمَعُ مِنْهُمْ فِي جَاهٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَظِيفَةٍ .

وَأَيُّ جَاهٍ يَرْجُوهُ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ يُصْبِحَ وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ ، بِسَبَبِ صِدْقِ دِينِهِ وَقُوَّةِ يَقِينِهِ ، وَسُمُوِّ خُلُقِهِ وَسَعَةِ عِلْمِهِ ، وَنُبْلِ مَقَاصِدِهِ . . ؟ !

غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي دِمَشْقَ مَلِكٌ كَثِيرُ الظُّلْمِ ، لَا يُرَاعِي حُقُوقَ شَعْبِهِ ، وَلَا يَهْتَمُّ بِشُئُونِ رَعِيَّتِهِ ، وَلَهُ مَآرِبُ شَخْصِيَّةٌ لَا يُبَالِي فِي سَبِيلِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا بِأَنْ يُضَحِّيَ بِمَصَالِحِ هٰذِهِ الرَّعِيَّةِ .

وَقَدْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ الشِّرِّيرَةُ أَنْ يَتَّفِقَ مَعَ أَعْدَاءِ وَطَنِهِ ، ضِدَّ

مَصْلَحَةِ رَعِيَّتِهِ ، لِيَصِلَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ إِلَى بَعْضِ المَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ .

وَكَانَ هٰذَا المَلِكُ قَدْ وَكَلَ إِلَى الشَّيْخِ « عِزِّ الدِّينِ » بَعْضَ المَنَاصِبِ العَظِيمَةِ الْأَهَمِّيَّةِ ، وَكَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ بِذٰلِكَ أَنْ يَمْلِكَ ضَمِيرَهُ ، وَيَشْتَرِيَ رِضَاهُ ، فَيَعْبَثَ مَا شَاءَ لَهُ العَبَثُ ، وَيُفْسِدَ مَا أَرَادَ لَهُ الفَسَادُ ، وَهُوَ آمِنٌ مِنْ مُؤَاخَذَةِ الشَّيْخِ . .

وَلٰكِنَّ الشَّيْخَ « عِزَّ الدِّينِ » كَانَ وَاقِفاً لِهٰذَا المَلِكِ بِالمِرْصَادِ . وَحِينَمَا سَمِعَ بِظُلْمِهِ ، وَضَعْفِهِ أَمَامَ أَعْدَائِهِ ، وَاسْتِسْلَامِهِ لَهُمْ ، وَتَفْرِيطِهِ فِي حُقُوقِ وَطَنِهِ وَرَعِيَّتِهِ هَالَهُ الأَمْرُ ، وَذَهَبَ إِلَيْهِ وَبَيَّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَعَاقِبَةَ تَصَرُّفِهِ ، وَقَدَّمَ إِلَيْهِ النَّصِيحَةَ خَالِصَةً لِوَجْهِ اللهِ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَيَرْعَوِيَ عَنْ غَيِّهِ ، وَيَتَجَنَّبَ التَّوَرُّطَ مَعَ أَعْدَاءِ بِلَادِهِ ، فِي اتِّفَاقٍ يَكُونُ فِيهِ إِهْدَارٌ لِحُقُوقِ شَعْبِهِ ، وَعَبَثٌ بِمَصْلَحَةِ رَعِيَّتِهِ .

وَكَانَ هٰذَا المَلِكُ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ ، طَائِشاً ، مَزْهُوّاً بِنَفْسِهِ مَغْرُوراً بِسُلْطَانِهِ ، غَافِلاً عَنِ اللهِ . فَتَعَجَّبَ مِنْ أَمْرِ الشَّيْخِ ، وَاعْتَبَرَ نَصِيحَتَهُ تَدَخُّلاً مِنْهُ فِي شُئُونِ الدَّوْلَةِ ، وَجُرْأَةً لَمْ يَكُنْ

يَتوَقَّعُهاَ مِنْهُ ، وَرَدَّهُ مِنْ لَدُنْهُ رَدًّا قَاسِياً ، وَنَهَرَهُ ، وَطَلَبَ مِنْهُ عَدَمَ التَّحدُّثِ فِي سِيَاسَتِهِ أَوِ التَّنْدِيدِ بِهاَ ، وَهَدَّدَهُ بِأَنْ يَبْطِشَ بِهِ ، وَيَعزِلَهُ عَنْ جَمِيعِ وَظَائِفِهِ .

وَلٰـكِنَّ الشَّيْخَ « عِزَّ الدِّينِ » هَزَأَ بِهِ وَسَخِرَ مِنْهُ ، وَذَهَبَ توًّا إِلَى المَسْجِدِ وَخَطَبَ فِي النَّاسِ خُطْبَةً طَوِيلَةً ثَائِرَةً ، كَشَفَ عَنْ حَقِيقَةِ هٰذَا المَلِكِ وَسَفَاهَتِهِ ، وَفَضَحَ فِيهاَ سُوءَ تَصَرُّفاتِهِ ، وَأَذَاعَ مُؤَامَرَتَهُ ضِدَّ وَطَنِهِ ، وَمُوَافَقَتَهُ لِأَعْدَاءِ دِينِهِ .

وَبَلغَ الْخَبَرُ مَسَامِعَ المَلِكِ ، فَاشْتَدَّ غَيْظُهُ ، وَاتَّقَدَتْ نَفْسُهُ غَضَباً ، وَعَزَلَ الشَّيْخَ عَنْ جَمِيعِ وَظَائِفِهِ وَأَمَرَ جُنُودَهُ وَأَعْوَانَهُ فَقَبضُوا عَلَى الشَّيْخِ وَأَلْقَوْهُ فِي غَيَابَةِ السِّجْنِ ، انْتِقَاماً مِنْهُ ، وَقَهْرًا لِنَفْسِهِ .

وَعَلِمَ أَهْلُ دِمَشْقَ بِذٰلِكَ ، وَعَرَفُوا أَنَّ الشَّيْخَ الَّذِى كَانَ يُدَافِعُ عَنْ حُقُوقِهِمْ ، وَيُحَافِظُ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، وَيَسْعَى فِي رَدِّ الظُّلْمِ عَنْهُمْ ، كَانَ جَزَاؤُهُ السِّجْنَ المُظْلِمَ ، وَالإِهَانَةَ الشَّدِيدَةَ فَثَارَتْ ثَائِرَتُهُمْ ، وَامْتَلأَتْ نُفُوسُهُمْ غَضَباً وَحَنَقاً ، عَلَى هٰذَا

المَلِكِ الجَائِرِ العَابِثِ ، وَأَخَذُوا يَتَدَبَّرُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَهُ .

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ أَطْلَقَ المَلِكُ سَرَاحَ الشَّيْخِ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ سِجْنِهِ. وَكَانَتْ أَنْبَاءُ أَهْلِ دِمَشْقَ وَغَضَبِهِمْ عَلَيْهِ قَدْ وَصَلَتْ إِلَى مَسَامِعِهِ، فَخَشِيَ أَنْ تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَائِهَا ضَيَاعُ مُلْكِهِ، وَانْقِضَاءُ دَوْلَتِهِ، فَرَأَى أَنْ يَنْجُوَ مِنْهَا بِإِطْلَاقِ سَرَاحِ الشَّيْخِ.

وَكَانَ المَلِكُ يَظُنُّ أَنَّ الشَّيْخَ سَتَهْدَأُ ثَائِرَتُهُ ، وَيَسْكُنُ غَضَبُهُ ، بَعْدَ أَنِ اسْتَرَدَّ حُرِّيَّتَهُ ؛ وَلَكِنَّ الشَّيْخَ « عِزَّ الدِّينِ » أَعْلَنَ لِلنَّاسِ بِأَنَّهُ سَيَرْحَلُ مِنْ دِمَشْقَ ، وَلَنْ يَبْقَى فِيهَا ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْكُنَهَا مَا دَامَ فِيهَا هٰذَا المَلِكُ الظَّالِمُ المَغْرُورُ .

وَلَمْ يَهْتَمَّ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » بِوَظَائِفِهِ الكَثِيرَةِ وَمَا كَانَتْ تُدِرُّهُ عَلَيْهِ مِنَ المَالِ ، وَتُهَيِّئُهُ لَهُ مِنَ الجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ رَجُلٌ لَا يُحِبُّ المَالَ ، وَلَا شَيْئًا مِنْ مُتَعِ هٰذِهِ الحَيَاةِ الزَّائِلَةِ ، وَلَا يَهُمُّهُ مِنْ حَيَاتِهِ غَيْرَ أَنْ يَقُولَ الحَقَّ وَيُدَافِعَ عَنْهُ .

وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ يَمُرُّ يَزِيدُهُ صَلَابَةً وَقُوَّةً فِي تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ وَحَمْلِ أَمَانَتِهِ ، وَالذَّوْدِ عَنِ الحَقِّ وَالعَدَالَةِ .

وَفِي أَحَدِ الأَيَّامِ ، خَرَجَ الشَّيْخُ «عِزُّ الدِّينِ» مِنْ مَدِينَةِ دِمَشْقَ ، قَاصِدًا البِلَادَ المِصْرِيَّةَ ، وَكَانَ أَهْلُ دِمَشْقَ قَدْ عَلِمُوا بِمِيعَادِ خُرُوجِهِ ، فَتَجَمْهَرُوا مِنْ حَوْلِهِ يُوَدِّعُونَهُ وَدَاعًا حَارًّا ، بَيْنَ أَسَفٍ وَبُكَاءٍ ، وَأَمَلٍ وَدُعَاءٍ . وَسَارُوا مَعَهُ فِي الطَّرِيقِ مَسَافَاتٍ بَعِيدَةً . وَكَانَ النَّاظِرُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ فِي ذَٰلِكَ اليَوْمِ يَحْسَبُ أَنَّهَا قَدْ خَلَتْ مِنَ السُّكَّانِ .

رَأَى مَلِكُ دِمَشْقَ هٰذَا الْوَدَاعَ الصَّادِقَ ، فَهَالَهُ أَمْرُهُ . وَأَحَبَّ أَنْ يُعِيدَ الشَّيْخَ مِنَ الطَّرِيقِ بِوَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولاً يَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى دِمَشْقَ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْمَلِكَ مُسْتَعِدٌّ لِقَبُولِهِ بِهَا وإِعَادَةِ وظَائِفِه إِلَيْهِ ، إِذَا قَبَّلَ يَدَهُ وَاعْتَذَرَ عَمَّا بَدَرَ مِنْهُ فِي حَقِّهِ . . . فَضَحِكَ الشَّيْخُ ضِحْكَةَ الْهَازِئِ السَّاخِرِ الْمُتَعَجِّبِ ، وَقَالَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ : وَاللهِ يا بُنَيَّ إِنِّي لا أَقْبَلُ أَنْ يُقَبِّلَ الْمَلِكُ رِجْلِي ، فَضْلاً عَنْ أَنْ أُقَبِّلَ يَدَهُ . يا قَوْمِ ! أَنْتُمْ فِي وَادٍ ، وَنَحْنُ فِي وَادٍ .

٢

أَخَذَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » طَرِيقَهُ نَحْوَ البِلادِ المِصْرِيَّةِ ، حَاثًّا مَطِيَّتَهُ عَلَى الرَّحِيلِ ، وَمُفَارَقَةِ دَوْلَةِ الظُّلْمِ . وَكَانَ فِي أَثْنَاءِ رَحِيلِهِ يَبْلُغُ مَحَلَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، وَيَدْخُلُ بَلْدَةً بَعْدَ بَلْدَةٍ . وَالنَّاسُ يَتَسَامَعُونَ بِهِجْرَتِهِ ، فَتَفِدُ إِلَيْهِ وَتَحْتَفِلُ بِقُدُومِهِ ، وَتُرَحِّبُ بِهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بِطَلْعَتِهِ ، وَتَدْعُو لَهُ اللهَ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى الخَيْرِ ، وَتَلْعَنُ مَلِكَ دِمَشْقَ الشِّرِّيرَ الظَّالِمَ .

وَمَا زَالَ الشَّيْخُ فِي رَحِيلِهِ ، حَتَّى بَلَغَ البِلادَ المِصْرِيَّةَ وَدَخَلَ عَاصِمَتَهَا القَاهِرَةَ ، فَفَرِحَ مَلِكُهَا الصَّالِحُ أَيُّوبُ بِهِ وَاسْتَبْشَرَ بِقُدُومِهِ ، وَلَقِيَهُ أَحْسَنَ لِقَاءٍ وَأَحْفَلَهُ . وَجَعَلَهُ قَاضِياً عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنْ بِلادِ مَمْلَكَتِهِ ، لِأَنَّهُ عَرَفَ فِيهِ الدِّقَّةَ فِي أَحْكَامِهِ ، وَالعَدَالَةَ فِي كُلِّ مَا يَفْصِلُ فِيهِ مِنَ القَضَايَا . وَاعْتَبَرَ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ وَهِجْرَتَهُ إِلَيْهَا غُنْماً لَهَا عَظِيماً .

وَوَكَلَ مَلِكُ مِصْرَ إِلَيْهِ الإِشْرَافَ عَلَى بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ .

وَكَانَ بَيْتُ المالِ فى ذٰلكَ الزَّمَانِ شَبِيهاً بِوَزَارَةِ الماليَّةِ فِى زَمَانِنا.

فَبَذَلَ الشَّيْخُ عِنايَةً كُبْرَى فِى المُحَافَظَةِ عَلَى بَيْتِ المالِ ، حَتَّى لا يَعْبَثَ بهِ عابثٌ ، وَلاَ يُفْسِدَ فِيهِ مُفْسِدٌ . وَأَخَذَ يَجْمَعُ الأَمْوَالَ المُسْتَحَقَّةَ لِبَيْتِ المَالِ ، وَيَشْتَدُّ فِى طَلَبِ الأَمْوَالِ المُتَأَخِّرَةِ لَهُ ، وَيُنْفِقُ مِنْها جَمِيعاً عَلَى مَصالِحِ الرَّعِيَّةِ ، وَكانَ حَرِيصاً كُلَّ الحِرْصِ فِيمَا يَجْمَعُهُ وَفِيما يُنفِقُهُ ، لا يُفَرِّطُ فِى كَثِيرَةٍ وَلا قَلِيلَةٍ ، عالماً أَنَّ هٰذَا المالَ أَمَانةٌ أَلْقاهَا اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، لِيَنظُرَ مَا يَصْنَعُ فِيهَا ، وَأَنَّ اللهَ سَيُحَاسِبُهُ عَلَى تَصَرُّفاتِهِ حِسَاباً عَسِيراً يَوْمَ الْقِيامَةِ . فَإِنْ أَنْصَفَ وَعَدَلَ كانَ جَزَاؤُهُ ثَوَاباً ، وَإِنْ جَارَ وَظَلَمَ كانَ جَزَاؤُهُ عِقاباً .

ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ كانَ لا يَرَى أَنَّ وَظِيفَتَهُ تَقِفُ بهِ عِنْدَ النَّظَرِ فِى أُمُورِ القَضَاءِ ، وَالحُكْمِ فِى القَضَايا وَالخُصُوماتِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلاَ تَقِفُ بهِ عِنْدَ رِعايةِ بَيْتِ المَالِ وَالحِرْصِ عَلَيْهِ ، وَالإِنْفاقِ مِنْهُ عَلَى مَصالِحِ الرَّعِيَّةِ . وَلٰكِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ فِى مُقَدَّمَةِ وَاجِباتِهِ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى السُّلطانِ بِالنَّصِيحَةِ الخالِصَةِ

كلَّما سَنَحتْ لَهُ الفُرْصَةُ ، وَحانَتِ المناسَبَةُ . فَيَحُضُّهُ عَلَى السَّهَرِ عَلَى مَصالِحِ الرَّعِيّةِ ، وَمُحارَبَةِ أَنْواعِ الفَسَادِ المُنْتَشِرةِ بَيْنَها ، وَالْعَمَلِ عَلَى نَشْرِ العَدْلِ وَإِزَالَةِ الظُّلْمِ وَمُساعَدَةِ المُحْتاجِ .

وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَتَقَدَّمُ بِنَصائِحِه هٰذِه إِلَى مَلِكِ مِصْرَ ، بِجُرْأَةٍ نادِرَةٍ وَصَرَاحَةٍ لا خَفَاءَ فِيهَا ، وَشَجاعَةٍ قَلَّما بَدَتْ مِنْ أَحَدٍ غَيْرِه .

وَفِي أَحَدِ أَيَّامِ الأَعْيادِ ، قامَ المَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ مِنْ نَوْمِه مُبَكِّرًا . فَظَهَرَ فِي أَحْسَنِ زِينَتِهِ ، وَارْتَدَى أَجْمَلَ حُلَلِهِ وأَبهى مَلابِسِهِ ، وَتَمَنْطَقَ بِمِنْطَقَتِه ، وَعَلَّقَ سَيْفَهُ بِحَمائِلِه ، وَجَلَسَ فِي قاعَةِ عَرْشِهِ ، لِيَسْتَقْبِلَ وُفُودَ المُهَنِّئِينَ بِالْعِيدِ السَّعِيدِ.

وَاجْتَمَعَ حَوْلَ الْمَلِكِ كِبَارُ الْأُمَرَاءِ مِنْ بِطَانَتِهِ ، وَعُظَمَاءُ الرِّجالِ مِنْ حاشِيَتِه . وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَلْبَسُ أَزْهَى مَلابِسِهِ وَأَبْهاها ، وَأَرْوَعَ حُلَلِهِ وَأَزْهاها ، مِمَّا يَبْهَرُ العُيُونَ وَيَخْطَفُ الْأَبْصَارَ . وَحَوْلَهُمُ الحَرَسُ والجُنُودُ وَأَسْلِحَتُهُمْ مَوْفُورَةٌ مُرْهَفَةٌ لامِعَةٌ .

ثُمَّ أَخَذَ أُمَرَاءُ الدَّوْلَةِ يَفِدُونَ عَلَى المَلِكِ واحِدًا بَعْدَ آخَر ، وَيُؤَدُّونَ لَهُ فَرِيضَةَ التَّهْنِئَةِ وَالتَّبْرِيكِ بِيَوْمِ العِيدِ . وَيُظْهِرُونَ ما تُكِنُّهُ

قُلُوبُهُمْ لَهُ مِنَ الْوَلاءِ، وَمَا تُضمِرُهُ نُفُوسُهُمْ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَالطَّاعَةِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْمَلِكُ فِي كَمَالِ أُبَّهَتِهِ، وَالْحَفْلُ مُكْتَمِلٌ، وَالْمَكَانُ حَاشِدٌ، وَكِبَارُ الأُمَرَاءِ وَاقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَعْيَانُ الدَّوْلَةِ وَرُؤَسَاءُ الدَّوَاوِينِ مَاثِلُونَ أَمَامَهُ، وَحَوْلَهُمْ وَقَفَ الْجُنُودُ فِي أَسْلِحَتِهِمُ الْمَاضِيَةِ الْمَسْنُونَةِ — إِذْ بَرَزَ الشَّيْخُ «عِزُّ الدِّينِ» قَادِماً إِلَى الْمَلِكِ لِيُؤَدِّيَ لَهُ فَرِيضَةَ التَّهْنِئَةِ، وَيُبَارِكَ لَهُ فِي هٰذَا الْعِيدِ.

وَقَفَ الشَّيْخُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ، وَلَمْ يَتَحَرَّكْ؛ وَتَرَقَّبَ الْحَاضِرُونَ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ. فَوَجَمُوا وَبُهِتُوا وَتَعَجَّبُوا وَمَلَكَتْهُمُ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ، وَسَكَنُوا كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرَ، وَتَوَقَّعُوا فِي هٰذِهِ اللَّحْظَةِ أَمْرًا خَطِيرًا، وَمُفَاجَأَةً رَائِعَةً، وَخُصُوصاً عِنْدَمَا رَأَوُا الشَّيْخَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ الْمَلِكِ وَيَتَفَرَّسُ فِيهِ ثُمَّ لا يَتَكَلَّمُ... فَلَمَّا شَعَرَ الشَّيْخُ بِتَطَلُّعِهِمْ إِلَيْهِ، وَاسْتِشْرَافِهِمْ لِحَدِيثِهِ، وَتَشَوُّقِهِمْ إِلَى كَلامِهِ نَظَرَ إِلَى الْمَلِكِ نَظْرَةَ السَّاخِرِ، وَحَدَّثَهُ حَدِيثَ الْمُهَدِّدِ الْمُتَوَعِّدِ قَائِلاً لَهُ:

«يَا أَيُّوبُ! مَا حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ إِذَا قَالَ لَكَ: أَلَمْ أَهَبْ

لكَ مُلْكَ مِصْرَ ، ثُمَّ تُبيحُ الْخُمُورَ ؟ »

فَقَالَ الْمَلِكُ : « هَلْ جرَى ذٰلِكَ ؟ ! »

قَالَ الشَّيْخُ : « نَعَمْ ! » ، وَأَخَذَ الشَّيْخُ يَذْكُرُ لِلْمَلِكِ الْأَمَاكِنَ الَّتِي يَتَعَاطَى النَّاسُ فِيهَا الْخُمُورَ ، وَالْأَمَاكِنَ الَّتِي يَكْثُرُ فِيهَا الفَسَادُ عَلَى اُخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ ، وَتَنْتَشِرُ مِنْهَا الْمُوبِقَاتُ وَالْمُنْكَرَاتُ ، الَّتِي لَا يَرْضَى اللهُ عَنْهَا ، وَالَّتِي تُخَالِفُ تَعَالِيمَ الدِّينِ ، وَتَهْدِمُ بِنَاءَ الْوَطَنِ ، وتُفْسِدُ حالَ الرَّعِيَّةِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ : « كَيْفَ تَتْرُكُ رَعِيَّتَكَ هٰكَذَا ، وَأَنْتَ تَتَقَلَّبُ فِي ثَوْبِ النِّعْمَةِ ، وَتَتَمَتَّعُ بِالْهُدُوءِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي هٰذِهِ الْمَمْلَكَةِ ؟! . إِنَّ أَقَلَّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَحْفَظَ الرَّعِيَّةَ مِنَ الْفَسَادِ ، وَتَحْمِيَهَا مِنْ هٰذِهِ الْمُنْكَرَاتِ ، حَتَّى تَلْقَى اللهَ بِصَفْحَةٍ نَقِيَّةٍ طَاهِرَةٍ . وَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تُحَارِبْ هٰذِهِ الْمُوبِقَاتِ وَتَعْمَلْ عَلَى مَحْوِهَا تُعْتَبَرُ رَاضِياً عَنْهَا مُقِرًّا لَهَا . . . »

فَقَالَ الْمَلِكُ : « إِنَّ هٰذَا لَيْسَ جَدِيدًا فِي أَيَّامِي ، وَلٰكِنَّهُ كَانَ مِنْ أَيَّامِ أَبِي » .

فَقَالَ الشَّيْخُ فِي ثَوْرَةٍ وَغَضَبٍ : « هَلْ أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ آبَاءَهُمْ ، وَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؟ ! وَهَلْ أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ؟ »

فَقَالَ الْمَلِكُ : « لَا ! وَلٰكِنَّنِي سَأُبْطِلُ هٰذِهِ الْمُنْكَرَاتِ وَأَمْحُو هَذَا الْفَسَادَ » . وَأَمَرَ الْمَلِكُ مِنْ فَوْرِهِ بِإِبْطَالِهَا . وَأَرْسَلَ جُنُودَهُ إِلَى أَمَاكِنِهَا لِإِقْفَالِهَا ، وَأَصْدَرَ مَرَاسِيمَهُ بِإِزَالَتِهَا وَمَحْوِهَا وَمُعَاقَبَةِ مُرْتَكِبِيهَا .

وَهٰكَذَا أَطَاعَ الْمَلِكُ نَصِيحَةَ الشَّيْخِ ، وَهٰكَذَا أَيْضًا كَانَ الشَّيْخُ سَبَبًا فِي صَلَاحِ الْمَلِكِ ، وَحِمَايَةِ الرَّعِيَّةِ مِنَ انْتِشَارِ الْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ وَالْعَادَاتِ الضَّارَّةِ فِيهَا ، وَسَبَبًا فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَى أَمْوَالِهَا وَزَمَنِهَا مِنَ الضَّيَاعِ فِيمَا لَا يُفِيدُ وَلَا يَنْفَعُ ، بَلْ فِيمَا يَضُرُّ وَيُؤْذِي . وَشَاعَتْ هٰذِهِ الْقِصَّةُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَعَرَفُوا نَتِيجَةَ هٰذِهِ الْمُجَادَلَةِ بَيْنَ الشَّيْخِ وَالْمَلِكِ ، فَسُرُّوا بِهَا سُرُورًا عَظِيمًا ، وَعَجِبُوا مِنْ جُرْأَةِ الشَّيْخِ عَلَى الْمَلِكِ وَصَلَابَتِهِ فِي

الدِّفَاعِ عَنْ رَأْيِهِ وَدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ، خُصُوصاً فِي زَمَنِهِمْ هٰذَا الَّذِي كَانَ السَّلَاطِينُ وَالْأُمَرَاءُ مُسْتَبِدِّينَ فِيهِ بِالرَّعِيَّةِ غَايَةَ الْاسْتِبْدَادِ .

وَتَقَدَّمَ إِلَى الشَّيْخِ ، أَحَدُ تَلَامِيذِهِ الْمُعْجَبِينَ بِهِ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الدَّاعِي الَّذِي دَعَاهُ إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمَلِكِ بِهٰذَا الْأَمْرِ فِي هٰذِهِ الْمُنَاسَبَةِ ، مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ عِيدٍ وَتَهْنِئَةٍ ، لَا يَوْمُ لَوْمٍ وَنَصِيحَةٍ . . قَالَ الشَّيْخُ لِتِلْمِيذِهِ : « إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلِكَ فِي هٰذَا الْيَوْمِ ، فِي عَظَمَةٍ تَامَّةٍ ، فَخِفْتُ عَلَيْهِ مِنْ دَاءِ الْكِبْرِ وَالزَّهْوِ بِالنَّفْسِ ، فَيَنْسَى بِسَبَبِ ذٰلِكَ ، جَلَالَ اللهِ وَعَظَمَتَهُ ، فَيُسِيءُ إِلَى نَفْسِهِ دُونَ وَعْيٍ ، وَيَرْكَبُهُ الْغُرُورُ دُون فِطْنَةٍ ، فَقَسَوْتُ فِي مُخَاطَبَتِهِ لِأَكْسِرَ نَفْسَهُ ، وَأُضْعِفَ حِدَّةَ غُرُورِهِ ، وَأُعِيدَهُ مُرْغَمًا إِلَى فَضِيلَةِ التَّوَاضُعِ ، وَخُصُوصًا أَمَامَ أُمَرَائِهِ وَجُنْدِهِ » .

قَالَ تِلْمِيذُهُ : « وَلٰكِنْ كَيْفَ اجْتَرَأْتَ يَا سَيِّدِي عَلَى مُخَاطَبَتِهِ ، وَهُوَ فِي كَامِلِ أُبَّهَتِهِ وَهَيْبَتِهِ ، وَمَعَهُ سِلَاحُهُ ، وَحَوْلَهُ حَرَسُهُ وَجُنُودُهُ ؟ !

فَتَبَسَّمَ الشَّيْخُ وَقَالَ لِتِلْمِيذِهِ : « وَاللهِ يَا بُنَيَّ لَقَدِ

اسْتَحْضَرْتُ فِى نَفْسِى حِينَذَاكَ هَيْبَةَ اللهِ وَعَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَبَدَا السُّلْطَانُ ضَئِيلًا فِى عَيْنَيَّ كَأَنَّهُ قِطٌّ صَغِيرٌ » . . .

وَفِى السِّنِينَ الَّتِى عَاشَ فِيهَا الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » ، وَقَعَتْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ قَاسِيَةٌ بَيْنَ أُمَمٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِى أَوَاسِطِ آسْيَا وَبِلَادِهَا الْغَرْبِيَّةِ. وَكَانَ مِنْ نَتَائِجِ هٰذِهِ الْحُرُوبِ ، تَيْتِيمُ الْأَطْفَالِ ، وَتَشْرِيدُ الْجَوَارِى ، وَتَشْتِيتُ الْأُسَرِ ، وَهَجْرُ الْأَوْطَانِ ، وَفَقْدُ الْأَمْوَالِ ، وَانْتِشَارُ الْمَجَاعَاتِ وَالْأَوْبَاءِ الْفَتَّاكَةِ . فَكَانَتْ هٰذِهِ الظُّرُوفُ فُرْصَةً حَسَنَةً وَمُنَاسَبَةً مُوَاتِيَةً ، انْتَهَزَهَا تُجَّارُ الرَّقِيقِ الَّذِينَ يَخْتَطِفُونَ الْأَطْفَالَ التَّائِهَةَ وَالْجَوَارِىَ الضَّالَّةَ ، أَوْ يَجْمَعُونَهُمْ بِأَىِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ ، ثُمَّ يَفِرُّونَ بِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمُ الْأَصْلِيَّةِ ، إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ ، فَيَعْرِضُونَهُمْ فِى أَسْوَاقِهَا ، وَيَبِيعُونَهُمْ بَيْعَ السِّلَعِ لِمَنْ يَبْتَغِى الشِّرَاءَ ، وَيَرْبَحُونَ مِنْ وَرَاءِ ذٰلِكَ مَالًا وَفِيرًا .

وَكَانَ فِى مِصْرَ أَسْوَاقٌ خَاصَّةٌ يُبَاعُ فِيهَا الرَّقِيقُ ، وَتُعْرَضُ فِيهَا هٰذِهِ الْبَضَائِعُ الْبَشَرِيَّةُ ، فِى تِلْكَ السِّنِينَ الْبَعِيدَةِ .

وَقَدْ أَقْبَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ وَالأَغْنِيَاءِ ، عَلَى شِرَاءِ هٰؤُلَاءِ الغِلْمَانِ وَالْجَوَارِي ، وَاقْتِنَائِهِمْ . كلٌّ مِنْهُمْ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ النُّقُودِ ، وَبِمِقْدَارِ رَغْبَتِهِ فِي الشِّرَاءِ . يَدْفَعُونَ الْمِائَةَ وَالْمِائَتَيْنِ ، أَوِ الأَلْفَ وَالأَلْفَيْنِ ، ثَمَنًا لِجَارِيَةٍ أَوْ غُلَامٍ . وَيَخْتَلِفُ الثَّمَنُ بِاخْتِلَافِ مَا تَمْتَازُ بِهِ هٰذِهِ الْبَضَائِعُ مِنَ الْجَمَالِ وَالذَّكَاءِ . . . وَأَطْلَقُوا عَلَيْهِمُ اسْمَ « الْمَمَالِيكِ » أَوِ « الأَرِقَّاءِ » . وَكَانَ الْمُشْتَرُونَ يَتَّخِذُونَهُمْ أَعْوَانًا لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الْمَنْزِلِيَّةِ ، أَوْ يَنْتَفِعُونَ بِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمُ الأُخْرَى ، حَسَبَ الْكِفَايَاتِ وَالظُّرُوفِ .

وَمِنْ عَجَائِبِ الأُمُورِ وَغَرَائِبِ الْمَقْدُورِ ، أَنَّ الْمَلِكَ الصَّالِحَ الْمَذْكُورَ ، رَأَى أَنْ يَشْتَرِيَ لِنَفْسِهِ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ هٰؤُلَاءِ الْمَمَالِيكِ . فَاشْتَرَى نَحْوَ أَلْفِ مَمْلُوكٍ مِنْ غِلْمَانِ الأَتْرَاكِ ، وَكَانُوا صِغَارَ السِّنِّ ، لَهُمْ وُجُوهٌ حَسَنَةٌ وَسِيمَةٌ ، وَقُدُودٌ مُعْتَدِلَةٌ مُسْتَقِيمَةٌ . وَبَنَى لَهُمْ مُعَسْكَرًا عَظِيمًا فِي جَزِيرَةِ الرَّوْضَةِ ، فَعُرِفُوا بَيْنَ النَّاسِ ، بِالْمَمَالِيكِ الْبَحْرِيَّةِ ، أَوِ الصَّالِحِيَّةِ نِسْبَةً

إِلَى سَيِّدِهِمْ وَمَالِكِهِمُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ .

وَقَد اعْتَنَى بِهِمُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ وَعَلَّمَهُمُ الْفُرُوسِيَّةَ ، وَعَوَّدَهُمُ الشَّجَاعَةَ ، وَدَرَّبَهُمْ تَدْرِيبًا عَسْكَرِيًّا . فَلَمَّا أَتَمُّوا ثَقَافَتَهُمْ صَارَتْ أَجْسَامُهُمْ قَوِيَّةً ، وَعُقُولُهُمْ كَبِيرَةً ، وَحِيلَتُهُمْ وَاسِعَةً ، وَشَجَاعَتُهُمْ يُضْرَبُ بِهَا الأَمْثَالُ فِي الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ .

فَاتَّخَذَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ مِنْهُمْ حَرَسًا وَجُنُودًا ، وَصَارُوا يَحْمُونَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ وَعَلَى مُلْكِهِ الْعَظِيمِ ، وَاشْتَرَكُوا مَعَهُ فِي بَعْضِ الْحُرُوبِ ، فَأَظْهَرُوا شَجَاعَةً فَائِقَةً وَقُوَّةً خَارِقَةً ، وَرَدُّوا أَعْدَاءَ مِصْرَ عَنْهَا ، وَهَزَمُوهُمْ شَرَّ هَزِيمَةٍ.

وَكَانَ كُلُّ مَمْلُوكٍ مِنْهُمْ إِذَا أَظْهَرَ شَجَاعَةً نَادِرَةً ، وَبَدَتْ مَوَاهِبُهُ قَوِيَّةً ، وَأَبْدَى تَفَوُّقًا فِي الْحُرُوبِ ، وَامْتِيَازًا يَدُلُّ عَلَى مَهَارَتِهِ وَصَلَابَةِ قَلْبِهِ ، أَعْتَقَهُ الْمَلِكُ وَأَعْطَاهُ لَقَبًا مِنْ أَلْقَابِ الْإِمَارَةِ ، فَيَصِيرُ أَمِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ .

وَأَهَمُّ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ ، أَنَّهُ يُصْبِحُ حُرًّا ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَبِيعَهُ ، وَلَا يَشْتَرِيَهُ ، وَيَسْتَطِيعُ هُوَ أَنْ يَبِيعَ وَيَشْتَرِي ،

وَيَرْهَنَ وَيُؤَجِّرَ، وَيَتَزَوَّجَ وَيُطَلِّقَ، وَيَتَّفِقَ مَعَ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَا يَشَاءُ. وَلٰكِنَّهُ قَبْلَ الْعِتْقِ يَكُونُ مَشْلُولَ التَّصَرُّفِ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقْضِيَ أَمْرًا إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْ سَيِّدِهِ.

ثُمَّ مَاتَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ أَيُّوبُ، فَاسْتَطَاعَ عَدَدٌ مِنْ كِبَارِ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ — وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَرِقَّاءَهُ وَمَمَالِيكَهُ — أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَى الْمُلْكِ، وَيَسْتَأْثِرُوا بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ. وَاخْتَارُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ جَعَلُوهُ سُلْطَانًا عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، مَكَانَ سَيِّدِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ؛ وَظَلُّوا كُلَّمَا خَلَا الْعَرْشُ مِنْ مَلِكٍ، يَخْتَارُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَاحِدًا آخَرَ يَحُلُّ مَحَلَّهُ، وَهٰكَذَا.

وَهٰكَذَا أَيْضًا أَصْبَحَ هٰؤُلَاءِ الْمَمَالِيكُ حُكَّامًا عَلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ، يَحْكُمُونَهَا كَيْفَ شَاءَ هَوَاهُمْ، وَصَارَتِ الْبِلَادُ وَأَهْلُهَا غَنِيمَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَيَنْعَمُونَ بِخَيْرِهَا وَثَمَرِهَا دُونَ سُكَّانِهَا. وَقَوِيَتْ شَوْكَةُ الْمَمَالِيكِ، وَزَادَتْ هَيْبَتُهُمْ وَاتَّسَعَتْ دَوْلَتُهُمْ وَاسْتَحْوَذُوا عَلَى مَرَافِقِ الْبِلَادِ، وَكَانَ كُلُّ مَلِكٍ أَوْ أَمِيرٍ يَسْتَكْثِرُ مِنْ شِرَاءِ الْمَمَالِيكِ الْجُدُدِ،

وَيَتَّخِذُونَ مِنْهُمْ جُنُودًا يَحْمُونَ مُلْكَهُمْ وَيَحْفَظُونَ دَوْلَتَهُمْ ، وَيَحْرُسُونَ الْبِلَادَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنْهَا أَعْدَاءَهَا . فَكَانُوا بِذَلِكَ الطَّبَقَةَ الحَاكِمَةَ دُونَ سِوَاهَا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ .

أَمَّا الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّينِ » فَإِنَّهُ ظَلَّ لَهُ نُفُوذُهُ القَدِيمُ بَيْنَ جَمَاهِيرِ الشَّعْبِ، وَظَلَّ لَهُ تَأْثِيرُهُ فِيهِمْ، وَاسْتَمَرَّ - كَمَا هِيَ عَادَتُهُ - لِسَانًا لِلْحَقِّ وَحَامِيًا لِلعَدْلِ .

لِذَلِكَ كَانَ يَتَقَدَّمُ بَيْنَ الآنِ وَالآنِ ، إِلَى سُلْطَانِ المَمَالِيكِ أَوْ أُمَرَائِهِمْ ، فَيَنْصَحُ المُسِيءَ مِنْهُمْ وَيَزْجُرُهُ ، وَيَعِظُ الظَّالِمَ وَيَنْهَرُهُ ، وَكَثِيرًا مَا كَانُوا يَسْتَمِعُونَ لِنُصْحِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِوَعْظِهِ .

وَظَلَّ الشَّيْخُ كَمَا هُوَ مُتَصَرِّفًا فِي شُئُونِ القَضَاءِ ، وَمُهَيْمِنًا عَلَى بَيْتِ المَالِ ، وَحَرِيصًا عَلَى حَقِّ المُسْلِمِينَ فِيهِ ، لَا يُقَصِّرُ فِي جَمْعِ مَالٍ ، وَلَا يَتَغَاضَى عَنْ مُسْتَحِقٍّ ، وَلَا يُسْرِفُ فِي الإِنْفَاقِ .

٣

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ يَوْمًا يَنْظُرُ فِي أَوْرَاقِ بَيْتِ المَالِ ، إِذْ تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهَا أَنَّ نَائِبَ السُّلْطَانِ ، وَأَحَدَ أُمَرَاءِ الدَّوْلَةِ ، لَا يَزَالَانِ عَبْدَيْنِ رَقِيقَيْنِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ أَنَّ السُّلْطَانَ الَّذِى كَانَ يَمْلِكُهُمَا مِنْ قَبْلُ ، قَدْ أَعْتَقَهُمَا . وَبِذٰلِكَ يَئُولُ مِلْكُهُمَا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ . وَيُعْتَبَرَانِ حَقًّا مِنْ حُقُوقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَنْبَغِى لَهُمَا أَنْ يَتَصَرَّفَا فِى أَمْرٍ ، وَلَا أَنْ يَلِيَا أَىَّ مَنْصِبٍ مِنْ مَنَاصِبِ الدَّوْلَةِ . وَتَوًّا أَرْسَلَ الشَّيْخُ رُسُلَهُ إِلَى هٰذَيْنِ الأَمِيرَيْنِ ، وَعَرَّفَهُمَا أَنَّهُمَا مِلْكٌ لِبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِنَ العُتَقَاءِ . وَيَنْبَغِى لَهُمَا أَنْ يُسَلِّمَا أَنْفُسَهُمَا لِصَاحِبِ بَيْتِ المَالِ ، لِيَتَصَرَّفَ فِيهِمَا وَفْقَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ مَصْلَحَةُ الْمُسْلِمِينَ .

فَمَا كَانَ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ الكَبِيرَيْنِ إِلَّا أَنْ سَخِرَا بِالشَّيْخِ وَتَهَكَّمَا بِرُسُلِهِ تَهَكُّمًا مُزْرِيًا . وَاحْتَقَرَا الشَّيْخَ وَأَفْكَارَهُ ، وَلَمْ يَهْتَمَّا بِأَمْرِهِ ، وَطَرَدَا رُسُلَهُ شَرَّ طَرْدَةٍ .

فَعَادَ رُسُلُ الشَّيْخِ إِلَى الشَّيْخِ ، وَقَصُّوا عَلَيْهِ مَا لَقُوهُ مِنْ هَوَانٍ وَامْتِهَانٍ مِنَ الأَمِيرَيْنِ . فَمَا كَانَ مِنَ الشَّيْخِ إِلَّا أَنَّهُ أَعْلَنَ النَّاسَ بِأَمْرِهِمَا . وَنَادَى مُنَادِيهِ بَيْنَ الْجَمَاهِيرِ أَنَّ هٰذَيْنِ الأَمِيرَيْنِ لَا يَزَالَانِ عَبْدَيْنِ رَقِيقَيْنِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَ الشَّيْخِ عِتْقُهُمَا ، وَأَنَّهُمَا بِذٰلِكَ مَمْلُوكَانِ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَرُّفٍ لَهُمَا بَاطِلٌ لا يُقِرُّهُ الشَّرْعُ ، وَلَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَلِيَا أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ ، وَلَيْسَ لَهُمَا أَنْ يَتَصَرَّفَا فِي أُمُورِهِمَا الْخَاصَّةِ كَمَا يَتَصَرَّفُ أَحْرَارُ الرِّجَالِ ، إِلَّا إِذَا أَذِنَ لَهُمَا صَاحِبُ بَيْتِ الْمَالِ ، فَلَا يَصِحُّ مِنْهُمَا بَيْعٌ وَلَا شِرَاءٌ ، وَلَا رَهْنٌ وَلَا إِجَارَةٌ ، وَلَا تَزَوُّجٌ وَلَا طَلَاقٌ ، وَلَا نَحْوُ ذٰلِكَ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْ صَاحِبِ بَيْتِ الْمَالِ ...

وَبَلَغَ الْخَبَرُ مَسَامِعَ الأَمِيرَيْنِ ، فَازْدَادَ هُزْؤُهُمَا بِالشَّيْخِ ، وَسُخْرِيَتُهُمَا مِنْهُ ، وَلٰكِنَّهُمَا لَمْ يَكْتُمَا تَعَجُّبَهُمَا مِنْ جُرْأَتِهِ عَلَيْهِمَا وَوَصَفَاهُ بِالْجَهْلِ وَالْحَمَاقَةِ ، وَدَهِشَا مِنْهُ كَيْفَ سَوَّغَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَدَّعِيَ هٰذِهِ الدَّعْوَى ، وَأَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُمَا فِي أُمُورِهِمَا الْخَاصَّةِ وَيَمْنَعَهُمَا مِنْهَا ، وَيُنْكِرَ عَلَيْهِمَا الْحُرِّيَّةَ ، وَهُمَا مِنْ حُكَّامِ

البِلَادِ وَأُمَرَائِهَا الَّذِينَ يَحْكُمُونَهَا بِسُيُوفِهِمْ ، وَيَمْنَحُونَ الحُرِّيَّةَ مَنْ يَشَاءُونَ وَيَحْرِمُونَهَا مَنْ يَشَاءُونَ . .

وَظَلَّ الأَمِيرَانِ لَا يُقِيمَانِ وَزْنًا لِدَعْوَى الشَّيْخِ وَكَلَامِهِ وَرَأْيِه .

وَلٰكِنَّهُمَا بَعْدَ قَلِيلٍ ، وَجَدَا أَنَّ النَّاسَ قَدْ تَوَقَّفُوا عَنِ التَّعَامُلِ مَعَهُمَا أَوْ مَعَ أَتْبَاعِهِمَا خُضُوعًا لِأَمْرِ الشَّيْخِ وَطَاعَةً لِرَأْيِه . فَلَمْ يَعُدْ أَحَدٌ مِنْهُمَا يَسْتَطِيعُ البَيْعَ وَلَا الشِّرَاءَ ، وَلَا أَىَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ ، إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلَا القُوَّةَ وَالقَسْوَةَ وَالقَهْرَ . وَأَخَذَ النَّاسُ لِذٰلِكَ يَصِفُونَهُمَا بِاغْتِصَابِ الحُقُوقِ وَأَكْلِ الأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ .

فَرَأَيَا بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّ أَعْمَالَهُمَا وَمَصَالِحَهُمَا قَدْ تَعَطَّلَتْ ، وَأَنَّ تَصَرُّفَاتِهِمَا أَصْبَحَتْ مَوْقُوفَةً ، وَقَاسَيَا صُعُوبَةً وَحَرَجًا كُلَّمَا أَرَادَا أَنْ يَتَعَامَلَا مَعَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ .

فَثَارَتْ ثَائِرَتُهُمَا حِينَمَا شَعَرَا أَنَّ المَسْأَلَةَ جِدٌّ لَا هَزْلَ فِيهِ ، وَاهْتَاجَ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ اهْتِيَاجًا شَدِيدًا ، وَمَلَكَهُ الغَضَبُ ، وَانْفَجَرَ بُرْكَانُ حِقْدِهِ عَلَى هٰذَا الشَّيْخِ الجَرِىءِ الَّذِى مَنَعَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِى شُئُونِهِ الخَاصَّةِ ، مَعَ أَنَّهُ يَحْكُمُ الدَّوْلَةَ بِأَجْمَعِهَا .

وَأَقْسَمَ قَسَماً عَظِيماً لَيَشُجَّنَّ رَأسَ الشَّيْخِ بِسَيْفِهِ ، وَيَقُدَّهُ نِصْفَيْنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ ، وَلِيُلْقِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَمْثَالِهِ مِنَ الحَمْقَى دَرْسًا قَاسِياً فِي طَرِيقَةِ مُعَامَلَةِ الأُمَرَاءِ وَالحُكَّامِ العُظَمَاءِ . . .

وَفِي يَوْمٍ تَحَجَّبَتْ شَمْسُهُ ، وَاكْفَهَرَّ جَوُّهُ ، وَتَلَبَّدَتْ بِالْغُيُومِ سَمَاؤُهُ ، وَبَدَا وَجْهُهُ عَابِسًا كَاشِرًا كَوَجْهِ نَائِبِ السَّلْطَنَةِ ، بَكَّرَ هٰذَا النَّائِبُ فَارْتَدَى ثَوْبَ الْحَرْبِ وَتَزَيَّا بِزِيِّ الْقِتَالِ ، وَوَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ خُوذَةً ، وَفَوْقَ صَدْرِهِ دِرْعًا ، وَفِي يَدِهِ سَيْفاً ، وَاعْتَلَى صَهْوَةَ فَرَسِهِ ، وَالْغَضَبُ يَتَطَايَرُ شَرَرُهُ مِنْ وَجْهِهِ ، وَالْحِقْدُ يَغْلِي فِي صَدْرِهِ ، وَسَارَ يَنْهَبُ بِفَرَسِهِ الْأَرْضَ نَهْباً ، وَيَقْطَعُهَا وَثْباً ، كَأَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى لِقَاءِ عَدُوٍّ مُجَاهِدٍ مُجَالِدٍ ، وَخَصْمٍ مُكَافِحٍ مُعَانِدٍ ، وَاتَّجَهَ إِلَى دَارِ الشَّيْخِ عِزِّ الدِّينِ .

وَصَلَ النَّائِبُ إِلَى عَتَبَةِ الدَّارِ ، فَطَرَقَ بَابَهَا طَرْقًا عَنِيفاً .

سَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ هٰذَا الطَّرْقَ العَنِيفَ ، فَتَوَجَّسُوا خِيفَةً ، وَشَاعَ القَلَقُ وَالاضْطِرَابُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ الشَّيْخَ فَقَدْ كَانَ هَادِئاً كَعَادَتِهِ ، رَزِيناً وَقُورًا جَلِيلاً كَمَا يَبْدُو دَائِماً . وَذَهَبَ ابْنُ

الشَّيْخ إِلَى النَّافِذَةِ وَهُوَ يَقُولُ : « مَنِ الطَّارِقُ » ؟ !

وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ نَائِبُ السَّلْطَنَةِ ، وَأَنَّهُ هُوَ ذَلِكَ الزَّائِرُ المرَوِّعُ ، والضَّيْفُ المفْزِعُ ، وأَنَّهُ جَاءَ — وَلَا بُدَّ — يَطْلُبُ إِلَى أَبِيهِ أَمرًا خَطِيرًا . وَهَا هُوَ ذَا يَتَطَايَرُ شَرَرُ غَضَبِهِ ، وَيَغْلِي مِرْجَلُ حِقْدِهِ .

وَأَوْجَسَ الابْنُ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً عَلَى أَبِيهِ ، وَخَشِيَ عَلَيْهِ الْأَذَى وَالهَلَاكَ مِنْ يَدِ هٰذَا الطَّاغِيَةِ . وَمَعَ أَنَّهُ يَعْرِفُ الشَّجَاعَةَ فِي أَبِيهِ ، وَيَعْلَمُ مَبْلَغَ جُرْأَتِهِ وَصَلَابَتِهِ فِي الْحَقِّ ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِ هَوْلَ المَوْقِفِ ، وَمَا أَدَّتْ إِلَيْهِ صَلَابَتُهُ . وَأَخْبَرَهُ الأَمْرَ وَأَخَذَ يُبَيِّنُ لَهُ عَاقِبَةَ تَمَسُّكِهِ بِالحقِّ، وحِرْصِهِ عَلَى مَالِ المسْلِمِينَ فِى زَمَانٍ فَاضَ بِالظُّلْمِ والطُّغْيَانِ، وامْتَلأَ بِأَلْوَانٍ مِنَ النِّفَاقِ والمصَانَعَةِ الَّتِي تحْسَبُ دَهَاءً وَسِيَاسَةً .

وَعَرَفَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ شَخْصِيَّةَ زَائِرِهِ ، فَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى لِقَائِهِ بِالْبَابِ . ولَـكِنَّ ابْنَهُ مَنَعَهُ قَائِلًا : « أَخْشَى عَلَيْكَ يَا أَبِي مِنَ المَوْتِ ، فَإِنَّ الأَمِيرَ غَاضِبٌ مُهْتَاجٌ ، وإِنِّى لَأَتَوَقَّعُ مِنْهُ شَرًّا ، وَقَدْ أَمْسَكَ بِمِقْبَضِ سَيْفِهِ اسْتِعْدَادًا لِأَمْرٍ دَبَّرَه » .

فَقَالَ الشَّيْخُ لِابْنِهِ : « يَا بُنَيَّ ! إِنَّ أَبَاكَ لَأَهْوَنُ مِنْ أَنْ يَمُوتَ فِي سَبِيلِ الحَقِّ . فَإِنْ قَتَلَنِي مُتُّ شَهِيدًا . وَإِنْ تَرَكَنِي بَلَغْتُ مِنْهُ مَا أُرِيدُ وَرَدَدْتُ مَالَ المُسْلِمِينَ . وَعَلَّمْتُهُ دَرْسًا فِي التَّوَاضُعِ لِلَّهِ ، وَمُعَالَجَةِ الأُمُورِ بِالحِكْمَةِ وَالعَدْلِ ». ثُمَّ نَزَلَ.

فَتَحَ الشَّيْخُ البَابَ ، وَرَحَّبَ بِضَيْفِهِ الكَبِيرِ . . . وَهُنَا اسْتَلَّ الأَمِيرُ سَيْفَهُ ، وَرَفَعَهُ فِي الهَوَاءِ بِيَدِهِ فِي عَجَلَةٍ وَسُرْعَةٍ ، وَأَرَادَ أَنْ يَهْوِيَ بِهِ عَلَى رَأْسِ الشَّيْخِ الجَلِيلِ . . .

هُنَا يَبِسَتْ يَدُهُ فِي الهَوَاءِ وَفِيهَا سَيْفُهَا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُنْزِلَهَا إِذْ مَلَكَتْهُ الهَيْبَةُ وَالرَّهْبَةُ مِنَ الشَّيْخِ وَجَلَالِهِ . وَأَعَادَ اللهُ إِلَيْهِ ضَمِيرَهُ فَجْأَةً ، فَأَنَّبَهُ وَوَبَّخَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ كَيْفَ يَقْتُلُ شَيْخًا تَقِيًّا جَلِيلاً بِسَبَبِ دِفَاعِهِ عَنِ الحَقِّ ، وَحِرْصِهِ عَلَى مَالِ المُسْلِمِينَ . . ؟ وَهَكَذَا كَسَرَتْ قُوَّةُ الحَقِّ رُعُونَةَ البَاطِلِ ، وَسَيْطَرَ خَوْفُ اللهِ عَلَى النَّفْسِ فَأَعَادَهَا إِلَى فَضِيلَةِ التَّوَاضُعِ . وَسَفَرَتِ العَدَالَةُ فَهَزَمَتِ الكِبْرِيَاءَ ، وَتَرَاجَعَ الظَّالِمُ مُقِرًّا بِظُلْمِهِ ، وَتَقَهْقَرَ المُجْرِمُ مُعْتَرِفًا بِجُرْمِهِ . . .

وَتَقَدَّمَ الأَمِيرُ إِلَى الشَّيْخِ ذَلِيلَ النَّفْسِ كَسِيرَ الخَاطِرِ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ الصَّفْحَ والمَغْفِرَةَ . . . فَعَفَا عَنْهُ .

ثُمَّ سَأَلَهُ الأَمِيرُ : مَاذَا يُرِيدُ بِهِ وَ بِزَمِيلِهِ ؟

فقَالَ الشَّيْخُ : « أَبِيعُكُما فِي السُّوقِ ، وَأَقْبِضُ ثَمَنَكُما وَأُضِيفُهُ إِلَى بَيْتِ المَالِ . . . »

فقَالَ الأَمِيرُ : « كما تَشَاءُ يا سَيِّدِي ! » وقفَلَ رَاجِعاً إِلَى دَارِهِ .

وَفِي يَوْمٍ بَدَتْ شَمْسُهُ ، وَتَكَشَّفَ جَوُّهُ ، وَصَفَتْ سَمَاؤُهُ ، وَأَسْفَرَ وَجْهُهُ ضَاحِكاً مُسْتَبْشِرًا ، بَكَّرَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّين » إِلَى إِحْدَى الأَسْوَاقِ ، حَيْثُ نُصِبَ لِلأَمِيرَيْنِ رِوَاقٌ وَاسِعٌ . وَحَضَرَا فِي أَكْمَلِ زِينَةٍ ، وأَتَمِّ حِلْيَةٍ ، وَأَبْهَى مَلْبَسٍ . وَتَجَمَّعَ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ ، يَتَفَرَّجُونَ بِبَيْعِ الأَمِيرَيْنِ الكَبِيرَيْنِ . . . وَالْتَفَّ حَوْلَ الأَمِيرَيْنِ كَثِيرٌ مِنَ الأُمَرَاءِ والأَحْبَابِ والأَتْبَاعِ . وَجَلَسَ الشَّيْخُ « عِزُّ الدِّين » بِجِوارِهِمَا وأَعْلَنَ افْتِتَاحَ المَزَادِ . . . هٰذَا المَزَادِ التَّارِيخِيِّ العَجِيبِ . . .

وَبَدَأَ المَزَادُ بِبَيْعِ نَائِبِ السَّلْطَنَةِ . . . وَأَخَذَ النَّاسُ يَتَزَايَدُون

فِي شِرَائِهِ، وَتَزَاحَمَ أَصْدِقَاؤُهُ فَدَفَعُوا الْمَائَةَ وَالْمِائَتَيْنِ، بَلِ الأَلْفَ وَالأَلْفَيْنِ، وَالشَّيْخُ لاَ يَزْدَادُ إِلاّ رَفْضًا وَإِبَاءً، وَأَخَذَ يُغَالِي فِي طَلَبِ الثَّمَنِ حَتَّى بَلَغَ عِدَّةَ آلاَفٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ. فَقَبَضَهَا الشَّيْخُ وَكَتَبَ لِلأَمِيرِ وَشَارِيهِ، وَرَقَةً بِالبَيْعِ . . .

ثُمَّ بَاعَ الأَمِيرَ الآخَرَ، وَغَالَى كَذَلِكَ فِي ثَمَنِهِ، حَتَّى بَلَغَ عِدَّةَ آلاَفٍ أُخْرَى، ثُمَّ أَعْطَاهُ وَأَعْطَى شَارِيَهِ وَرَقَةً بِالبَيْعِ ...

انْفَضَّ المَزَادُ بَعْدَ أَنْ تَمَّ بَيْعُ الأَمِيرَيْنِ، كَمَا أَرَادَ الشَّيْخُ . . . ثُمَّ إِنَّ اللَّذَيْنِ اشْتَرَيَاهُمَا أَعْتَقَاهُمَا، فَصَارَا حُرَّيْنِ مِثْلَ سَائِرِ أَحْرَارِ الرِّجَالِ. وَأَعْلَنَ الشَّيْخُ النَّاسَ بِهَذَا العِتْقِ وَهَذِهِ الْحُرِّيَّةِ وَأَنَّ لِلأَمِيرَيْنِ الآنَ أَنْ يَتَصَرَّفَا كَمَا يَشَاءَانِ فِي الشُّئُونِ العَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ . . .

وَعَادَ الشَّيْخُ إِلَى بَيْتِهِ فَرِحًا مَسْرُورًا مُسْتَبْشِرًا لأَنَّهُ قَضَى حَقَّ اللهِ، وَضَمَّ مَالًا مُسْتَحَقًّا إِلَى بَيْتِ المَالِ.

وَذَاعَ أَمْرُ الشَّيْخِ بَيْنَ النَّاسِ وَخَلَّدَتِ الكُتُبُ قِصَّتَهُ وَعُرِفَ بِأَنَّهُ « بَائِعُ الأُمَرَاءِ » ! ...

مجموعة القصص الدينية

تتضمن هذه المجموعة قصصاً شائقة ، فيها تنوير للقلب ، ودعوة إلى الحق ، وإيمان بالمبدأ ، واتصال بالله . جرت حوادثها مع رجال غلبت عليهم الروحانية ، وأعلنوا الحق غير مبالين أن يصيبهم ما يصيبهم ، ولو كان فيه تلف نفوسهم : فهي الشجاعة في إبداء الرأي ، ونصرة الحق ، والأخذ بيد المظلوم ، وهي ثورة على الفساد ، ومحاربة الطغيان ! ثم انتصار الحق والفضيلة والخلق الكريم .

١ – قابيل وهابيل	١١ – عام الفيل
٢ – سبأ	١٢ – زمزم
٣ – ذو القرنين	١٣ – مؤمن آل فرعون
٤ – قارون	١٤ – طالوت وجالوت
٥ – موسى والخضر	١٥ – العزير وحماره
٦ – بقرة بني إسرائيل	١٦ – شكر النعمة
٧ – أصحاب القرية	١٧ – الإسراء والمعراج
٨ – أهل الكهف	١٨ – سدرة المنتهى
٩ – أصحاب الأخدود	١٩ – بائع الأمراء
١٠ – أصحاب الفيل	٢٠ – جريج العابد

ثمن النسخة ٣ قروش

دار المعارف

ملتزم التوزيع : مؤسسة المطبوعات الحديثة